القابســـــى
(٣٢٤-٤٠٣هـ)

سياقه الثقافى :

هو أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بالقابسى، والبعض يقول : "ابن القابسى" نسبة إلى قابس، مع أن الجميع يقرون بأنه من القيروان، ولا تفسير لذلك إلا أنه أتى قابس صغيرًا فنسب إليها، سواء عن طريقه هو نفسه أو عن طريق أبيه.

وقابس مدينة بين طرابلس الغرب وسفاقس.

وهو، مثل معظم علماء المغرب، قام بالحج، وفى طريقه إليه ومنه، كان من المعتاد المرور بمصر والمكوث بها بعض الوقت للنهل من معارف بعض علمائها .

وجاء فى وصف مفكرنا: "كان عالمًا، جمع بين العلم والعبادة، والورع، والزهد، والإشفاق والخشية، ورقة القلب، ونزاهة النفس ومحبة الفقراء، حافظًا لكتاب الله ومعانيه وأحكامه، عالماً بعلوم السنة والفقه واختلاف الناس ..." (الأهوانى، ص ١٥).

وقد أجمع الذين ترجموا له على أنه كان محدثًا حافظًا فقيهًا .

والآراء التى سنتناولها بالشرح للقابسى، متضمنة فى كتابه الشهير (الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين)، وهى التى أقام عليها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى رسالته للدكتوراه من آداب القاهرة، فى أوائل العقد الرابع من القرن العشرين، ويعتمد عليها كل من كتب عن القابسى، حيث لا مصدر إلاهو .

والقابسى مالكى المذهب كجرى عادة الجمهرة الكبرى من أهل المغرب، ذلك أنه لم يكن فى المغرب من أئمة العلماء من يأخذ الناس عنهم، ولم تكن حلقات العلم فى مساجدها

مما يشبع نهم طلاب التعمق فى العلم، وإنما كان النهج الغالب لطلاب العلم أن يرحلوا إلى مواطنه فى مكة والمدينة، ومن الطبيعى بناء على هذا أن يمروا بمصر، وفى مصر ومكة والمدينة من العلماء المتمكنين فى العلم مقصد لمن يطلب التوسع فى معالم الدين الأساسية والتفقه فى أحكام المعاملات والعبادات والتشريع (الأهوانى، ص ٢٦).

والنتيجة التى ترتبت على ذلك أن أصبح المغاربة طلبة لشيوخ مصر والحجاز، ومن هنا كان قول ابن خلدون: "وأما مالك فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، لما أن رحلتهم كانت غالبًا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذٍ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق فى طريقهم، فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة، وشيخهم وإمامهم مالك وشيوخه من قبله، وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إلينا طريقته" (المقدمة، ص ٣٩٢).

ومن المعروف أن الإمام مالك كان من أصحاب مدرسة الحديث، والتى تختلف مع المدرسة الأخرى التى سميت بمدرسة أصحاب الرأى، وأصحاب الحديث هم أهل الحجاز، وأشهر علمائهم مالك بن أنس والشافعى وأصحاب سفيان الثورى، وأحمد بن حنبل، وسموا بأصحاب الحديث؛ لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث، ونقل الأخبار، وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلى والخفى ما وجدوا خبرًا أو أثرًا .

أما أصحاب الرأى، وهم أهل العراق، وهم أصحاب أبى حنيفة النعمان، وسموا بذلك لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس، والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وهذا وذاك مما يعنى اعتمادًا أكثر على العقل وما ينتجه من رأى.

وأصحاب الحديث، وأصحاب الرأى يتفقون فى الاعتماد على الكتاب، أى القرآن لأنه الأصل الأول فى علم أصول الفقه، ولا وجه للخلاف فيه؛ لأنه تنزيل العزيز الحكيم، ولكنهما يفترقان عند الأصل الثانى، أى السنة، فأصحاب الحديث وعلى رأسهم مالك يأخذون بالحديث، وأصحاب الرأى لا يعتمدون عليه كثيرًا (الأهوانى، ص ٣٠).

القابسى يتبع المنهج الفقهى:

ولعل هذا يوضح لنا المنهج الذى سار عليه القابسى، ألا وهو ما يسمى بالمنهج الفقهى، حيث أكد قائلاً: "فقد بينت لك ما جاء فى فضل من تعلم القرآن وعلمه، كل ذلك عن كتاب الله عز وجل، وعما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليمًا ".

لكنه فى الوقت نفسه اعتمد – بعد هذين الأصلين الأولين، على عمل أهل المدينة، وعلى القياس الشرعى، والعرف، والمصلحة .

وقد وجه الأهوانى نقدًا شديدًا لهذا المنهج، وقد عرضنا لزاوية منه أثناء تناولنا الآراء التربوية لابن سحنون، فهو من المدرسة نفسها، بل وأسبق، ونشير هنا إلى تأكيد الأهوانى على أن المنهج الفقهى ليس من المرونة بحيث يستجيب لما تشهده المجتمعات من تغير وتطور، كاشفًا عن بعض الأمثلة وكيف أنها لا تنسجم والتطور الاجتماعى .

ونحن ننبه إلى أن المنهج الفقهى نفسه لا يهمل القياس، فهذه صورة عقلية تبعث على الاجتهاد بحثًا عن أوجه الشبه والاختلاف حتى يتم القياس على وجهه الدقيق .

كذلك فإن الإقرار بضرورة الأخذ بالعرف، يعنى النظر بعين الاعتبار لمتغيرات الزمان والمكان؛ لأن الأعراف ليست ثابتة على حال واحد .

وأكثر من هذا فهناك أيضًا (المصلحة) المقر بها أصلا من أصول التشريع، خاصة بالنسبة إلى المسائل التربوية .

ومهما قيل بأن المنهج الفقهى يقيد الأخذ بالرأى، ويتقيد تمامًا بالقرآن والسنة، لكننا نؤكد أنه من الناحية الواقعية لا مفر من الاجتهاد لسبب بسيط أن النصوص القرآنية والنبوية تمر من خلال عقل إنسانى يختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن شخص إلى آخر، ولا نقصد بهذا فتح الباب على مصراعيه للتأويل والتفسير، لكن كى نؤكد أن باب الاعتماد على الاجتهاد العقلى ليس مغلقًا هنا .

ويبدو نقد الأهوانى لهذا المنهج من ناحية أخرى على قدر من الوجاهة، فنحن إذا كنا

نستطلع موقف الإسلام من هذه القضية أو تلك من قضايا التعليم ومسائله فمن المحتم – فى رأينا – من اتباع هذا المنهج، لكن نتفق مع الأهوانى من ناحية أخرى، أننا إذا أردنا أن نختار منهجًا دراسيًّا أو طريقة تعليم أو نظامًا تعليميًّا، إلى غير هذا وذاك من مسائل، فيصح هنا القول بأننا لا نعلم سلوك الصبيان وأحوالهم وتدرجهم فى النمو العقلى والجسمانى إلا بالمشاهدة التى يمكن أن تنتهى إلى وضع قوانين أو تعميمات هى التى يجب تطبيقها، ومن هنا نفهم ملاحظة الأهوانى التى قال فيها: "أما القابسى فإنه عكس الطريق، فبدأ من حيث كان ينبغى أن ينتهى؛ لأنه يعتمد على أصول ثابتة من الكتاب أو السنة أو الإجماع، يفرع عليها ما يريد من أحكام، والأصح أن ينظر إلى أحوال الصبيان لينتهى بعد ذلك بهذه الأحكام" (الأهوانى، ص ٤١).

تعليم الكُتَّاب :

وتروى بعض الروايات أن الكُتاب كان موجودًا فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد ذُكر أنه لقى أعرابيًّا فقال له : هل تحسن أن تقرأ القرآن ؟ قال : نعم، قال : فاقرأ أم القرآن، قال: والله ما أحسن البنات، فكيف الأم ؟ قال : فضربه، ثم أسلمه إلى الكُتَّاب، فمكث فيه، ثم هرب وأنشأ يقول (الأهوانى، ص ٦٤) :

أتيت مهاجرين فعلمونى ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله فى رَق صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطوا لى أبا جاد وقالوا تعلم صعفصا وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجى وما حظ البنين من البنات

ويمكن لقارئ رسالة القابسى أن يقف على وصف عام لحال التعليم فى المؤسسة الأولى للتعليم فى الإسلام؛ ألا وهى الكتاب، وهى صورة أقرب إلى الواقعية، لأن الميزة الأساسية هنا أن الرجل لم يجلس فى داره أو فى أى مكان ما يتأمل ويفكر فيما ينبغى أن يكون عليه

obeikan.com

الكتاب أو أى مؤسسة تربوية أخرى، أو كيف يكون نظام التعليم وطريقته، كما هو النهج الغالب على مفكرى الأمس، وإنما هو فقيه يفتى الناس، ومن جملة الوقائع التى وجه التساؤل إليه ليفتى ويقرر حكم الدين، هذه المسائل التى أثارها فى رسالته، وبالتالى فلم تكن تحليقًا فى آفاق التجريد، ولا هى صورة مثالية، لأن الذى يبحث عن فتوى، فإنما كى يواجه بها موقفًا حياتيًّا وجد نفسه لا يدرى كيف يتصرف إزاءه !!

لكن القابسى من ناحية أخرى كان، حين يحكم على شىء بأنه حسن، كان يتبع طريقة الفقهاء، وهى الاستناد إلى أصول من الكتاب والسنة والإجماع، والمصلحة التى يذكرها هى المصلحة الشرعية أو الدينية، فتعليم "الأنثى القرآن والعلم حسن، ومن مصالحها"؛ لأن ذلك هو السبيل إلى معرفة الدين وتأدية الصلاة المفروضة على المؤمنين والمؤمنات ... هكذا يعلق الأهوانى، لكننا من ناحية أخرى نتساءل: وهل معرفة الدين وتأدية الصلاة مقاصد فى حد ذاتها أم أنها وسائل لمقاصد أخرى هى المعروفة بمقاصد الشرع، والتى يأتى على رأسها حفظ المال والنفس والعقل وعائدها يعود على الإنسان نفسه ؟

المقصد من التعليم :

ليس من العسير أن نقرر على الفور أن المقصد الدينى كان هو المحور الأساسى لكل ما كتب القابسى، بل كل من كتب حتى عصره، فالعصر كله عصر عقيدة دينية تظلل المنطقة كلها التى فتحها العرب باسم الإسلام، والمقصد الدينى هنا هو أن يعرف المتعلم المعالم الأساسية للعقيدة الإسلامية، لا من الناحية النظرية فقط، وإنما وأن يمارس ما ترشد إليه وتطالب به فى المعاملات العامة مع سائر الناس، فضلا عما تتضمنه هذه العقيدة من عبادات تحتاج إلى معرفة مبادئها وأغراضها وكيفية ممارستها .

والكُتَّاب بحكم ما كان عليه من بساطة، كان يقف عند كل هذا موقفًا بسيطًا أيضًا، لكن المقصد المركزى هو حفظ القرآن الكريم، وما يقتضيه هذا من حتمية تعلم القراءة والكتابة. ومعرفة القرآن ضرورية لمعرفة الدين، حيث لا تتم الصلاة إلا بقراءة شىء من القرآن فيها،

والصلاة مفروضة على المسلمين؛ لأنها ركن من أركان الدين.

وإذا كان بعض الباحثين قد أضاف أغراضًا أخرى للتربية الإسلامية، مثل الغرض الاجتماعى أو الغرض الثقافى أو النفسى، فإنها فى رسالة القابسى فروع من المقصد الرئيسى ألا وهو المقصد الدينى، وتذكر ما كان ينبغى على المتعلم أن يتعلمه فى الكتاب، لتؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك هذه الحقيقة التى يؤكدها الأهوانى عن فكر القابسى، بل وجمهرة أخرى غيره كثيرة .

ولعل من أبرز ما يؤكد على المقصد الدينى أن يبدأ القابسى رسالته بإبراز السؤال الذى وُجه إليه واهتم بأن تبدأ الرسالة بالإجابة عنه ألا وهو تفسير الإيمان والإسلام والإحسان، إذ يبدو أن هذا هو جوهر التعليم ومقصد التربية.

وها هو القابسى يسفر فى سطوره الأولى عن منهجه، فيستند فى تفسير الإيمان على ما جاء فى الحديث الصحيح، حيث روى أبو هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كان بارزًا يومًا للناس، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: ما الإسلام ؟ قال: الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان ؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

إن هذه المقولة الأولى تعنى أن الإيمان هو فى الحقيقة الإسلام، لقوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ... (١٩)﴾، وقوله تعالى أيضًا فى سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾. أما المقولة الأخيرة فهى ما تؤيده الآية القرآنية فى سورة الكهف، حيث يقول – سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

ومضى القابسى طويلا يشرح العلاقة بين الإيمان والإسلام، باعتبار ذلك ركيزة عملية التربية والتنشئة، فالإيمان على الحقيقة إسلام، والإسلام على

الحقيقة إيمان، ويوضح هذا ما جاء فى قصة آل لوط فى قوله تعالى فى سورة الذاريات: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾. وإذا لم يكن الإيمان من قائله صادقًا، كان إظهار ذلك ممن أقر به نفاقًا، كما قال سبحانه فى سورة المائدة: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾، وكذلك من أظهر الإقرار بالإيمان، وعمل فيما أظهر بما أمر به، وانتهى فيما يُرى منه عما نُهى عنه، وقلبه مؤمن بذلك أنه من عند الله، فليس هو إسلامًا على الحقيقة، وهو كما قال الله – عز وجل– فى سورة الحجرات: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾. فنبأهم أن الإيمان، الذى هو التصديق فى القول والعمل، لم يدخل قلوبهم، ولكن عملوا عملا هو إسلام، أى استسلموا وألقوا السّلَم مداراة لمن قهرهم، يحمون بذلك أنفسهم وأهليهم وأموالهم، مما يلقاه الصابئون بالكفر (الأهوانى، ص ٢٧٢).

التربية الخلقية :

وتلك قضية بديهية بالنسبة إلى مربٍّ مثل القابسى الذى جعل من الدين، قولاً وعملاً، هو مقصد العملية التربوية، حيث تكون الأخلاق هى مدار العمل، سواء من الناحية التربوية أو من الناحية الدينية، فمن المعروف أن (الدين المعاملة)، والمعاملة سلوك، وبالتالى يصبح جوهر الدين قائمًا فى السلوك الذى يصدر من الإنسان، إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر.

وقد جاء رأى القابسى في التربية الخلقية من خلال إجابته عن سؤال يتصل بمعنى الاستقامة وماهيتها، وإجابة القابسى هى أن الاستقامة هى "القيام بما أمر الله به" (ص٢٧٥)، ويسوق الآيات القرآنية إيضاحًا وشرحًا وبيانًا لبعض جوانب الاستقامة، مثال ذلك قوله- عز وجل- في سورة هود: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾، وإذا كان جل شأنه قال في سورة الرعد: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾، ففى وصفه لأولى الألباب، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، هى وصف للمستقيم.

ويزيد تأكيدا لذلك في توصيف الاستقامة، قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾، وقوله في سورة النساء أيضًا ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٰتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

وقد أمر الله عز وجل في فاتحة الكتاب المؤمنين أن يقولوا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾.

وإذا كانت الاستقامة في الدين تنصبُّ على المداومة على القيام بما أمر به الله عز وجل، فهذا يؤيده ما روته السيدة عائشة – رضى الله عنها– عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من أن أحب عمل إليه هو الذى يدوم عليه صاحبه، وقالت أيضا : سئل النبى صلى الله عليه وسلم: أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : "أدومه وإن قل" .

جانب آخر في التربية الخلقية سئل عنه القابسى وهو يتصل بكيفية الصلاح، حيث ألمح إلى أن كل ما سبق له صلته الوثيقة بالصلاح كذلك، وخاصة ما ذكره متصلاً بالإحسان، والمعصوم هو من عصمه الله – عز وجل–، وإن اقتصر العبد الحسنُ العبادة على أداء الفرائض، واجتناب المحارم، ولم يزد، فهو أيضًا من الصالحين، وما زاد بعد ذلك من طاعة ربه زاده خيرًا، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيح من حديث لأبى هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبد بشىء أحب إلّى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلّى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن

سألنى لأعطينه، وإن استعاذ بى لأعيذنه". فهذا حديث رائع في الموعظة والبشرى، لمن أخذ بما فيه، اقتصر على أداء الفرائض أو زاد بعد استكمالها من النوافل؛ لأن النوافل إنما تكون بعد استكمال الفرائض (ص ٢٧٨).

تعليم القرآن الكريم وتعلمه :

هو بطبيعة الحال رأس الفضائل التربوية، وقمة المهام الدينية، وصدق القابسى عندما أجاب سائله عن هذا بأنه يكفيه من فضل القرآن أنه كلام الله -عز وجل- الذى هو غير مخلوق، ثم ثناء الله على هذا القرآن في غير موضع منه، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾، وكذلك قوله في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾، وفى سورة الأعراف: ﴿المٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، وفى سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾﴾.

وغير هذه الآيات هناك أيضًا الآيتان ١٥، و١٦ في سورة المائدة، وكذلك الآية ٤٨، وسورة فصلت، الآيتان ٤١، و ٤٢، وسورة الإسراء، الآيتان ٩، و١٠، وسورة الأنعام، الآية ٥٥ .

أما بالنسبة إلى من تعلمه أو علّمه، ففيه حديث مشهور ومنشور، وهو حديث سعد بن عبيدة، عن عثمان - رضى الله عنه-، عن النبى - صلى الله عليه وسلم- قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". كذلك روى عنه - صلى الله عليه وسلم- قوله : "المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر .

ومثل المنافق الذى لا يقرأ، كالحنظلة، طعمها مر أو خبيث وريحها مر" (ص ٢٨٢).

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل". وأهم من ذلك قوله – سبحانه وتعالى– في وصف قارئ القرآن في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

لكن القرآن يحتاج دائمًا إلى مدارسة ومراجعة وتذكير؛ حيث من المحتمل نسيان ما تم حفظه، وإهمال ذلك صورة من صور الخطأ، قد وصى الرسول – عليه الصلاة والسلام– أهل القرآن بالمحافظة على استذكاره، وأخبرهم أنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم، وفى حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى –صلى الله عليه وسلم– قال : "تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل في عُقُلها"، كما جاء في صحيح البخارى .ويشرح القابسى هذا بأن صاحب الإبل المعقلة، إن تعمد إطلاقها إطلاقًا يتلفها فإنه ارتكب النهى الذى جاء عن رسول الله أنه نهى عن إضاعة المال، وإن أطلقها بعذر يجيز له إطلاقها خلص من ركوب النهى، وفَقَد نفعها، فمثّل صاحب القرآن إنْ ترك تعاهد استذكاره بصاحب هذه الإبل (ص٢٨٤).

وإذا كان هناك أمر بترتيل القرآن، فذلك لأن الترتيل في القراءة يحيى الفهم للعالم، فيستعين به على التدبر الذى له أنزل، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

والوالد الذى يُعَلِّم ولده القرآن هو ضمن من أشار إليهم رسول الله بقوله: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". وإذا قال البعض: إن الوالد لا يقوم بتعليم ابنه بنفسه وإنما يستأجر له معلمًا هو الذى يقوم بذلك، إلا أن القابسى يؤكد فضل الوالد إذا أنفق ماله عليه في تعليمه القرآن، ومن المعروف قوله صلى الله عليه وسلم : "أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها

فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ..."، فإذا كان لمن علم وليدة فأحسن تعليمها وصنع فيها ما قال في هذا الحديث يكون له أجران، فالذى يعلم ولده فيحسن تعليمه، ويؤدبه فيحسن تأديبه، فقد عمل في ولده عملا حسنًا، يرجى له تضعيف أجره (ص ٢٨٨)، كما قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

ويستعين القابسى بمنطق القياس ليؤكد أن من يقوم بتعليم ولده القرآن لا بد أن يكون له أجر عظيم وخير كثير، فقد جاء أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- مر بامرأة في محفتها فقيل لها : هذا رسول الله، فأخذت بعضد صبى معها وقالت : ألهذا حج ؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : "نعم، ولك أجر". ومن هنا يتساءل القابسى بحق : هل يكون لهذه المرأة أجر فيما هو لصبيها حج، إلا من أجل أنها أحضرته ذلك الحج، ووليت القيام به فيه، وإنما له من ذلك الحج بركة شهوده الخير، ودعوة المسلمين، ووفقًا للمنطق نفسه فإن الذى يناله الوالد من تعليم الصبى القرآن الكريم هو علم يبقى له بحوزه، وهو أطول غناء وأكثر نفقة .

مناهج تعليم اختيارية :

إذا كان القرآن الكريم، حفظًا وفهمًا ولغة وتفسيرًا مما "يجب" على المتعلم أن يدرسه، لا كما رأى القابسى وحده، بل الكثرة الغالبة، وخاصة ممن عرفوا بأنهم من المدرسة الفقهية، مثل مربينا الحالى، ومن قبله ابن سحنون، وغيرهما ممن يقتربون منهما في النهج والتوجه، فإن هناك مما يمكن أن يتعلمه المتعلم، لكن على سبيل الاختيار والرغبة، ومعيار الاختيار هنا دائمًا هو مدى القرب أو البعد عن المقصد الدينى، فعلم مثل علم الحساب، هو بمقاييسنا المعاصرة ينظر إليه على أنه بعيد تمامًا عن الدين، لكن فقهاءنا قالوا العكس من ذلك، فمعرفته مهمة بالنسبة إلى المعاملات التجارية وقسمة المواريث وغيرها، ومن ثم فتعلمه "فضيلة" لكن ليس "فريضة" (الأهوانى، ص ١٦٧).

لكننا لا ندرى حقًّا ما إذا كان القابسى قد أراد من تعليم الحساب المصلحة الدينية أم الاجتماعية أم كليهما معًا، لكننا نرجح أنه قصد فائدة الحساب في استكمال المعرفة الدينية، ومن هنا فقد قال: "ينبغى أن يعلمهم – أى المعلم – الحساب، وليس ذلك بلازم له، إلا أن يشترط عليه" .

أما بالنسبة إلى تعليم الشعر، فلم يكن موضع اتفاق بين الفقهاء، حتى القابسى، لم يكن حاسمًا في مدى استحسان تعلم الشعر، فهو وإن روى حديثًا منسوبًا للنبى – صلى الله عليه وسلم– يقول فيه: "إنما الشعر كلام، فحسنه حسن وقبيحه قبيح"، وكذلك: "إن من الشعر لحكمة"، إلا أنه شك بعض الشىء في الحديث الأول، ثم أشار إلى حديث ثالث لم يشك في نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه يوحى بموقف سلبى من الشعر، حيث جاء في هذا الحديث النبوى : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا"، وقد فهم القابسى منه أن يكثر اهتمام الإنسان بالشعر حتى يشغله عن القرآن .

لكنه، من ناحية أخرى، لم ينكر أن من فوائد تعلم المتعلم الشعر أنه "يقيم لسانه ويفصحه ويأنس إليه في بعض الأوقات ويستشهد به فيما يريد بيانه" (الأهوانى، ص ١٦٩).

كذلك أشار القابسى إلى علم آخر من العلوم الاختيارية ألا وهو "أيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوى المروءات"، وهو ما يندرج اليوم تحت باب علم التاريخ، وهو يريد من تعليمه أن يكون محركًا لهمم المتعلمين نحو أعمال البطولة، وباعثًا لهم على أفعال الخير، والغرض من علم الرجال التشبه بالأبطال، والتشبه بالرجال من الكمال، والغاية من سير ذوى المروءات، القدوة في السبق إلى الخيرات (الأهوانى، ص ١٧١).

الإلزام في التعليم :

لم تعرف الكثرة الغالبة من البلدان العربية الإلزام في التعليم إلا منذ أقل من قرن من الزمان، فإذا علمنا أن رجلا مثل القابسى، يقول بهذا المبدأ العظيم من عشرة قرون، فإن

هذا يؤكد أننا أمام عقلية مربية على قدر عالٍ من تفتح العقل وسبق زمانه، على عكس ما قاله الأهوانى من عموم تقليدية الرجل وجموده بسبب تمسكه بالمنهج الفقهى، فها هو، وفقًا للمنهج الفقهى ذاته، يسبق زمانه بعشرة قرون، ويقول عبارات لا تحتمل اللبس ولا التأويل في أن التعليم حق للطفل، واجب على ولى الأمر.

ويبدو أن جدة المسألة وحداثة الرأى وجرأته دفعت الدكتور الأهوانى إلى أن يعترف للرجل بالجرأة وأنه أحسن عرض القضية (ص ٩٠).

صحيح أن ذلك جاء في معرض تعليم القرآن الكريم، لكننا نعود مرة أخرى لنذكر بأن السياق الثقافى قضى بذلك، حيث إن القرآن كان هو محور التعليم والتعلم، وأن هذا الإلزام يعنى بالضرورة وجوب التعليم والتعلم لأساسيات الثقافة القائمة .

وأدلة القابسى قوية أخاذة تنقلك من فكرة إلى أخرى حتى ينتهى بك إلى أن تعليم جميع الصبيان ضرورى واجب، وأن هذا الوجوب هو الوجوب الشرعى، على طريقة الفقهاء، ذلك أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن، ومعرفة القرآن واجبة أيضًا لضرورتها في الصلاة، وأن الوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والصلاة؛ لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه، فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتَّاب لتلقى العلم بأجر، فإذا لم يكن الوالد قادرًا على نفقة التعليم فأقرباؤه مكلفون بذلك، فإذا عجز أهله عن نفقة التعليم، فالمحسنون مرغبون في ذلك، أو معلم الكتَّاب يعلم الفقير احتسابًا أو من بيت المال (الأهوانى، ص ٩١) .

فكأن التعليم حق للطفل، وواجب على المسئولين عنه، بغض النظر عن الحال المالى، وهذا هو جوهر قضية الإلزام في التعليم .

وينبه القابسى إلى أن سن الطفل لا تتيح له أن يعى ما هو ضرورى لصلاح حاله، ومن ثم تقع المسئولية على الوالد، وخاصة بالنسبة إلى التعليم، والوالد الذى يترك هذه المهمة ولا يقوم بها "والد جاف لا رغبة له في الخير"، على الرغم من أن المولى – سبحانه وتعالى– قال

في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ... ﴿٦٣﴾﴾، إلى قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾، ومن ثم فإن الذى يرغب إلى ربه أن يجعل من ذريته قرة أعين، لم يبخل على ولده بما ينفق عليه في تعليمه القرآن، يقول تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾.

تعليم الأنثى :

وتلك أيضًا قضية من القضايا التي يضيفها القابسى إلى نسقه الفكرى التربوى المتقدم، ذلك أن كتب التراث الإسلامى إذا كانت لا تخلو من ذكر إناث تعلمن وعلمن وقرضن الشعر، وصدرت منهن الحكم والأمثال والوصايا، إلا أن ذلك كان في دائرة ضيقة، ولا نريد أن نعيب ذلك، فهكذا كان توجه العصر لا في العالم الإسلامى وحده، وإنما في الكثرة الغالبة من العالم، حيث كانت الظروف –ربما– تبرر ذلك .

لكننا في الوقت نفسه، نعى جيدًا أن القابسى، إذ تحدث وشجع على تعليم الأنثى، فقد كان هذا أيضًا انطلاقًا من خريطته الفكرية التي تدور في الغالب والأعم حول الدين، ومن ثم فتعليم الأنثى هنا ليس أى تعليم، بل هو تعليم القرآن الكريم، فإذا نظرنا إلى الأمر من هذا المنظور، لا يستطيع أحد إلا أن يقول إنه واجب، وليس مجرد "جائز"، ولذلك قال القابسى: "وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم، فهو حسن ومن مصالحها"، حيث يستوقفنا هنا أمران : أولهما أنه لم يقتصر على تعليم القرآن، بل قال: ".. والعلم"، والأمر الثانى أنه يستند إلى مبدأين مهمين من مبادئ المنهج الفقهى ألا وهما الاستحسان، والمصلحة (ص ٢٩٢).

ولا يترك القابسى حكمه هذا دون أن يستند إلى قواعد ومبادئ شرعية، فالله –عز وجل– قد أخذ على المؤمنات فيما عليهن، كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم، وذلك في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾. وكذلك قوله –عز وجل– في سورة

الأحزاب أيضًا ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾، فكيف لا يُعَلّمن الخير، وما يعين عليه، ويصرف عنهن القائم عليهن ما يحذر عليهن منه، إذ هو الراعى فيهن والمسئول عنهن، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (ص ٢٩٣).

وفى بعض آيات القرآن الكريم، يجىء الجمع بين الذكور والإناث في الخطاب القرآنى على أساس التساوى في المسئولية، وبالتالى التساوى في الأجر والعقاب، يقول تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وظيفة المعلم :

من العبارات اللافتة للنظر حقًّا هو تفسير القابسى لانصراف أئمة المسلمين عن إقامة معلمين يعلمون للناس أولادهم من صغرهم في الكتَّاب، ويجعلون لهم على ذلك نصيبًا من مال الله عز وجل، كما صنعوا لمن كلفوه القيام للمسلمين في النظر بينهم في أحكامهم، وغير هذا وذاك من مهام ومسئوليات وقعت على عاتق أولى الأمر القائمين على أمر الأمة، وكأن القابسى بذلك يتعرض من طرف خفى للجهد الأهلى والجهد الرسمى .

لقد "حكم" الرجل بأن ذلك حدث؛ لأن أولياء أمور المسلمين رأوا أن تعليم الأبناء هو أمر يخص كل إنسان في نفسه، إذ كان ما يعلمه المرء لولده، فهو من صلاح نفسه المختص به، فأبقوه عملا من عمل الآباء (ص ٢٩٥) .

فلما رأى الآباء أن الدولة تركت هذا الأمر لهم، كان من الضرورى أن يتخذوا لأولادهم معلمين يختصون بهذه المهمة، وأن يتفرغوا لذلك، أى يتركوا فرص الانشغال بمهام أخرى

يمكن من خلالها أن يكسبوا قوت يومهم وينفقوا على أسرهم، وتحددت المسئولية بناء على هذا في أن المعلم "قد حمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم، ويبصرهم استقامة أحوالهم، وما ينمى لهم في الخير أفهامهم، ويبعد عن الشر مالهم"...هذه هى مهمة المعلم ووظيفته، مما يصبح من الصعب معه أن نجد معلمين "متطوعين"، ولو انتظرنا أن يأتى متطوعون لذلك "لضاع كثير من الصبيان، ولما تعلم القرآن كثير من الناس"، ولو قد تركنا هذا يحدث -لا قدر الله- لقادنا إلى انحسار دائرة القرآن في صدور قليلة من المسلمين .

والقابسى إذ يبسط هذا، فإنما لكى ينتهى إلى أن المعلم لا بد له من "أجر"، حيث إن تقاضى المعلم أجرًا، في ذلك الزمان لم يكن من الأمور المعتادة في البداية، حيث كان المسلمون مأمورين بنشر القرآن وتعليمه للآخرين باعتبار ذلك فريضة، فكيف يأخذ المسلم أجرًا على قيامه بفريضة ؟!

وقد استند معارضو أخذ أجر على تعليم القرآن إلى حديث القوس، فعن عبادة بن الصامت: علّمت ناسًا من أهل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى لى رجل منهم قوسًا، فقلت: ليست بمال وأرمى عليها في سبيل الله. لآتين رسول الله فلأسألنه، فأتيته فقلت : يا رسول الله، رجل أهدى لى قوسًا ممن كنت أعلمه الكتاب القرآن وليست بمال، وأرمى عليها في سبيل الله، فقال : "إن كنت تحب أن تكون طوقًا من النار فاقبلها" (الأهوانى، ص ٢١٢).

ويبدو أن القابسى شك في هذا الحديث، حيث إن هناك أحاديث لرسول الله أيضًا تجيز الأجر، منها حديث: "أحق ما أخذتم عليه أجرًا، كتاب الله".، ومنها أيضًا حديث الرقية، حيث إن بعض أصحاب النبى رقوا ملدوغًا بالقرآن واشترطوا جعلا، وسألوا النبى في ذلك فقال : "اقسموا واضربوا لى معكم سهمًا"، وهذا يعنى إجازة أخذ الإجارة على كتاب الله ممن ينتفع به .

وتعددت الشواهد من بعض العلماء على جواز تعليم القرآن بأجر (الأهوانى، ص ٢١٤) فعن مالك: "كل من أدركت من أهل العلم لا يرى بأجر المعلمين – معلمى الكتاب – بأسًا".

وعن ابن وهب يقول : "سمعت مالكًا يقول : لا بأس بأخذ الأجر على تعليم القرآن والكتابة" .

وفى المدونة، أن سعد بن أبى وقاص قدم برجل من أهل العراق، وكان يعلم أبناءهم الكتابة والقرآن بالمدينة، ويعطونه على ذلك الأجرة .

وإذا كان كثيرون قد أجازوا أخذ أجر على تعليم القرآن، فقد كان الخلاف على أخذ أجر على تعليم غير القرآن، ويبدو أن ذلك كان دافعه عدم تشجيع الانشغال عن القرآن بتعليم أمور أخرى وخاصة الشعر .

وإذا كان للمعلم أن يتناول أجرًا على تعليم طلابه القرآن، فليس له بناء على هذا أن يتطلع أو يقبل هدية من متعلم، حيث اعتبر القابسى هذا من النقائص .

ويبدو أن بعض المعلمين كان يأذن لطلابه بإجازة جزء من اليوم، حتى يتمكنوا من الذهاب لشهود مناسبة زواج أو ولادة، صائحين أمام البيت : أستاذنا .. بصوت عالٍ، حيث يطوون ما أحبوا من طعام أو غيره، ويأتون به إلى المعلم، قد عاب القابسى حدوث هذا واستقبحه، بل ولم يجز كذلك أن يستخدم بعض المعلمين طلابهم في إحضار أشياء لهم كالحطب وغيره .

وقد أجاز القابسى أن تكون للمعلم سلطة عظيمة على طلابه، على اعتبار أن المعلم يحل هنا محل الوالد في التربية والتنشئة والتثقيف . وإذا تقررت السلطة للمعلم، فهو مسئول عن الصبيان؛ لأنه لا مسئولية لمن لا سلطة له، فالمعلم صاحب سلطة وصاحب مسئولية، ويجب عليه حسن رعاية الصبيان؛ لأن نظره فيمن التزم النظر له من الصبيان رعاية يدخل بها في قول الرسول: "كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته" (الأهوانى، ص ٢٠٥).

والقابسى حين يقرر للمعلم هذه السلطة العظيمة التي تساوى في مقدارها سلطة الوالد، إنما يرمى إلى فائدة الصبيان أنفسهم، وإثراء ثقافتهم العقلية، ورياضتهم الخلقية، لأن المعلم إذا شعر بنقص في سلطته عجز عن حكم الصبيان وخرجوا على طاعته، وامتنع عليه أن يدفعهم إلى الامتثال لأمره، أما إذا باشر السلطة الكاملة التامة فإنه يأمر فيطاع وينصح فيسمع .

ومن أروع ما نجده في أفكار القابسى حقًّا هو هذا الوعى المتعمق لفكرة المساءلة والمحاسبة، فهو يعتبر قيام معلم بتعليم إنسان بأجر وكأنه تعاقد، والعقد شريعة المتعاقدين، أى أنه إنما يستحق ما يتلقاه من أجر، بناء على قيامه بمسئولية التعليم، ومن ثم فإذا قصّر في ذلك، وأظهرته النتائج، فمعنى ذلك أنه لا يستحق ما اتفق عليه من أجر "فالواجب على المعلم الاجتهاد حتى يوفى ما يجب عليه للصبيان، فإن وفّى ذلك يطيب له ما يأخذه على التعليم بشرط، وليعلم أنه إن فرط في وفاء ما عليه، أنه لا يجب له ولا يطيب له أن يأخذ من ذلك، لأن الذين أجازوا له شرط الإجارة بينوا له ما يجب عليه، فإن خالف ما بينوا له لم يطب له ما أخذ بشرطه، فليس يجد من يستند من العلماء في جواز ما فعل من التفريط، لما في الأخذ على تعليم القرآن من الخلاف .." (الأهوانى، ص ٣١١).

والرفق بالمتعلمين: كثيرًا ما نجد هذا المنتج لدى الكثرة الغالبة من المربين الإسلاميين، مما يكشف عن أهميته وجوهريته، وقد جاء عن عائشة أم المؤمنين -رضى الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : "اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فيه فارفق به" (صحيح البخارى)، وقد قال رسول الله أيضًا: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله" .

ويرتبط بهذا ألا يكون المعلم عبوسًا، خاصة إذا استدام في ذلك، فمثل هذه الاستدامة تدفع المتعلمين إلى التجرؤ عليه "فكونه عبوسًا أبدا من الفظاظة الممقوتة" (الأهوانى، ص٣١٢)، لكن لا بأس من استخدامها أحيانًا عند الضرورة .

والعكس أيضًا، لا بد أن يؤخذ بحذر، ألا وهو التبسط الشديد من المعلم للطلاب، فهو أيضًا غير مستحب، ومن ثم فلا ينبغى له أن يضاحك أحدًا منهم بدرجة ملحوظة.

وفى الوقت الذى لاحظنا فيه شيوع المناداة بالرفق، فإن الضرب أيضًا كان شائعًا، لكن القابسى حرص على إحاطته بسياج من الآداب والشروط المهمة، كأن يتباطأ الطالب في حفظه أو يكثر الخطأ، وإن كان من المفضل التقريع بالكلام "الذى فيه التواعد من غير شتم ولا سبٍّ لعرض" ، وعادة ما يحدث مثل هذا في حال الغضب مما يجب أن يحذر معه المعلم، أى أن يوقع عقابًا وهو غاضب، وقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أن يقضى القاضى

وهو غضبان . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب إنسان، فلما أقيم للضرب، قال : اتركوه . فقيل له في ذلك، فقال : وجدت في نفسى عليه غضبًا، فكرهت أن أضربه وأنا غضبان .

يقول القابسى: "كذا ينبغى لمعلم الأطفال أن يراعى منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه، ولا شىء يريح قلبه من غيظه، فإن ذلك، إن أصابه فإنما ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه، وهذا ليس من العدل" (ص ٣١٣).

لكن، ماذا لو ارتكب الصبى بالفعل جرمًا من أذى ولعب وهروب من الكُتَّاب، وإدمان الغياب ؟ هنا ينبغى للمعلم أن يستشير أباه أو وصيه، إن كان يتيمًا، ويخبره بجرمه، ومن ثم يمكن له أن يُقدم على ضربه فوق ثلاث ضربات "وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم في التأثير المشنع، أو الوهن المضر" (ص ٣١٣).

وهكذا نجد أن القابسى، وقد استقرأ جيدًا روح العقيدة ونصوصها، ومتغيرات العصر الذى عاشه، وضع أسسًا مهمة لتربية الأبناء، بحيث يكونون عناصر متوافقة مع العقيدة والحال الثقافى .

مراجـــع:

١- أحمد فؤاد الأهوانى : التربية في الإسلام، أو التعليم في رأى القابسى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م.

٢- القابسى: الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، في (أحمد فؤاد الأهوانى، ١٩٥٥م).